بحث فى الاستعمار الاوروبى وسيطرته على العالم

١ ــ مشاكل العالم الجديد

حينما ندرس حالة العالم بعد الحرب الأخيرة يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الانسانية لم يعرف عهدا مملوءاً بالمشاكل والمتناقضات والانقلابات المتتابعة والتغييرات السريعة التى تنفرد بخروجها عن كل قاعدة ومخالفتها للمألوف والمعهود مثل الذى نراه أمام أعيننا اليوم .

٢ ــ صعوبة الدرس

هل بوسعنا أن نستخلص بعض القواعد العامة أو الاتجاهات أو نضبط شيئاً من العلائق التى تربط بين الأسباب بعضها مع بعض أو بين الأسباب والظواهر ، أو نستبق الحوادث فنكشف عن نتائجها ، أو نتنبأ بما قد تأتى به الأيام المقبلة .

٣ ــ أثر القرن الماضى :

يصعب استخلاص شىء من ذلك الآن نظراً لتتابع الحوادث ،

وتطورها السريع إلا إذا حرصنا على بحث الظروف التى مرت بالعالم بين حربين . وكشفنا عن الدروس التى ألقاها علينا تاريخ القرن الماضى بأكمله ، فقد تساعدنا على إلقاء نظرة تمهد لنا الطرق وتسهل السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب ، تهدينا إلى تحديد بعض النتائج التى حصلت عليها الإنسانية بعد خروجها من حربين عالميتين

نقرر ذلك لأن الفترة التى تقع بين ١٨١٥ — ١٩١٤ ، أى بين مؤتمر فينا ، وإعلان الحرب العظمى الأولى ، كانت مملوءة بالحوادث الكبرى فهى قد بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناداة بتحرير الشعوب واستقلالها فى أوربا ، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن بين الدول الأوربية الكبرى ثم كانت فترة الثورة التى نقلت أوروبا من عهد الاقطاع وبقايا القرون الوسطى إلى عهد الصناعة الآلية وما يلازمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن الكبرى ونمو الرأسمالية وبروزها كعامل أساسى انشائى فى حياة الشعوب الأوربية .

٤ — التوسع الاستعمارى الجارف :

وكانت هذه الفترة كل هذا ولكن أكبر مظاهرها هو أنها كانت عصر التوسع الاستعمارى الجارف فما معنى هذا ؟

أن الذى يبدو لنا فى عام ١٩١٤ ، وظاهرا ملموسا هو أن الدول التى توسعت فى أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم والمغلوبة والمحكومة على أمرها ، قد أخذت تتحول من دول أوربية إلى دول ذات صبغة عالمية

ويهمنا أن نعرف كيف تم هذا التحول، وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع من ساحته ، والانكماش على نفسها بعد أن ذاقت طعم حلاوته .

كل هـذا يمكن تحديده ودرسه : إذا عرفنا شيئا عن اتجاهات هذا القرن الماضى والتطورات التى تمت فى أثنائه .

٥ — الاستعمار قديم فى مساوائه :

فمن المسلم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ؛ وكانت تعرف طريقة استغلال الأراضى والشعوب — قبل العهد الذى أفردنا التكلم عنه — ولـكن نشاطها كان محدودا وفى دائرة ضيقه ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذى وصلت إليه فى الفترة الأخيرة بل كان الاستعمار يجتاز أدوار المحاولات البدائية ، ويتعثر فى تجاربه التمهيدية التى تحمل روح المغامرة الأولى .

٦ — عصر السيـطرة :

أما فى الفترة التى أشرنا إليها فقد وصل الاستعمار إلى أوجه الأكبر حتى أن البشرية لم تعرف فى كل أدوار تطورها وكفاحها وفى كل عصورها السالفة بغير استثناء زمنا خضعت فيه شعوب الأرض المختلفة بمدنياتها وتقاليدها بل من نواحى انتاجها الحكم بعده

أوروبا مثل العهد الذى جاء بين ١٨١٥ — ١٩١٤

٧ — تسابق وتنافس وتزاحم :

فى هذه اللفته من الزمن اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوربا الكبيرة والصغيرة القديمة منها والناشئة على احتلال الأراضى وتقسيم القارات لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة فأصبح الجليد والصخر والرمال وجزائر البحار ميدانا لكل هذا ومحلا للنزاع والاطماع ورفع الأعلام وتقسيم مناطق النفوذ بالمعاهدات والاتفاقات .

٨ — ما هو مركز الشعوب والحكومة :

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم وكل كفاح فى سبيل تحرير الشعوب وإنقاذها من براثن الاستعمار ومشاكله يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ومداه لكى نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوروبا لكى يركز على أساس منطق معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائيا منها .

وأول مايتبادر إلى الذهن هو التساؤل عن أثر هذا التحول

أو التطور العالمى الذى كان من نتيجته أن انقسمت الإنسانية إلى فريقين

١ — أمم قوية سائدة مستعمرة

٢ — أمم ضعيفة خاضعة : لا تجد رغم جهودها الفرض لملاحقة الاولى .

٩ — أثر السيطرة الأوربية :

فلنكن هنا صريحين أمام الحقائق وإن كانت مرة علينا .

كان من أثر هذه السيطرة أن تحطمت المدنيات القديمة التى كانت سائدة فى قارات العالم بل اندثرت وتلاشت بقاياها وآثارها وأنظمتها أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادى والعسكرى .

١٠ — نتائجها السلبية والإيجابية:

ان الأثر السلبى كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الأسيوية والافريقية وفقدان حريتها وتصفيه الطبقات الحاكمة فيها فلم يعد فيها رجال من الصف الأول وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها

أما الأثر الإيجابى فهو أن السيطرة الأوربية اقترنت بزيادة السكان فى المستعمرات بل أصبحت هذه الزيادة مظهرا من مظاهر الإستعمار الأوروبى ويرجع هذا إلى التقدم المادى وحالة الاستقرار التى فرضتها الدول الحاكمة حتى لقد لاحظ الاجتماعيون أن هذه الزيادة فى سكان المعمورة لم تعرفها الانسانية من قبل فى أى عصر من عصورها السالفة[١].

(١) لا يزال الجزء الغربى من آسيا ووسطها ناقصا فى السكان : فلم تستعد تركيا وإيران والقوقاز واراضى التركستان ما كانت عليه من العمران فى السابق

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتغلغل فى جهات مختلفة ان ارتبطت أنحاء العالم بطرق مواصلات سهلة كانت أولى آثارها ان خضعت الشعوب خضوعاً أعمى أمام القوة إذ فشلت كل محاولة للثورات واستعمال القوة وأصبحت علاقات الشعوب مع القوة الغاصبة هى علاقة التابع للمتبوع.[١]

فهذه ناحية سلبية تقابلها أخرى إيجابية تتخلص فى أن هذه الأمم التى جهلت بعضها حيناً والتى تنافرت فى الأعصر السالفة وجدت نفسها تحت الاستعمار الأوروبى وما أدخله من سهولة الانتقال فى مركز يسمح لها بالتعارف واستعادة العلاقات والروابط التى كانت قائمة بينها يوما ما ثم انقطعت.

١١ — العلم والاقتصاد سلاح المستعمر :

استقرت سيادة الأوربيين وسيطرتهم على الأرض بتفوقهم العسكرى ومقدرتهم على استعمال الأسلحة الحديثة وأمنوا أن تقوم الشعوب عليهم حينما أخذوا بأنظمة تجنيد المرتزقة وكتائب الشعوب الملونة فألقى عبء القتال واستتباب الأمن عليها ونزلت تكاليف الحكم والإدارة إلى أدنى ما يمكن أن تصل إليه فانتقل الإستعمار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى طور جديد هو الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال المستعمرات وثرواتها المعدنية والزراعية على أسس جديدة

(١) يخيل للكثيرين ان عهد الاستعمار قد انتهى ، اما نحن فنرى ان ابعد البلاد الاسيوية او الافريقية قد اصبحت تحت رحمة المستعمرين فى أى وقت شاؤوا قذفوها بقنابلهم .

أى اتجهت الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على مرافق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانه وأرادته بكل مافى العلم من قوة ثائرة Révolutionnaire ومافى الاقتصاد من قوة منتجة وأخذت هذه الاتجاهات تتطور بسرعة فائقة حتى أخذت مظهر الاندفاع للسير بهذه النهضة نحو تحقيق أهداف عالمية.

١٢ — الدراسات العلمية فى خدمة الدول المستعمرة لحكم الشعوب :

أما من الناحية السياسية فقد أخرج القرن الماضى لدى الدول التى تقدم لديها الوعى الاستعمارى نشاطا أشد خطراً من الأسلحة وأمضى وأعمق أثراً هو الدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفى حكم الشعوب المغلوبة على أمرها[1].

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعائم سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ومقدرتهم على قيادة الشعوب التى يحكمونها وتولى مقاليد زمامها فكانت النتائج التى وصلوا إليها كنجاحهم أمام إحدى مظاهر الطبيعة التى ألانوا قناتها وأخضعوها لمشيئتهم فى عالم الجماد والحيوان فطبقوها تباعاً على فريق من بنى الإنسان الذين أوقعتهم الأقدار تحت أحكامهم.

١٣ — النظام الأقتصادى فى القرن الماضى . « الباب المفتوح »

ومع توالى نجاح الاوربيين فى عملهم أصبحت مشكلة المستعمرات كبرى

(١) يفهم من هذا ان للاستعمار فلسفة : واول من هم فى حاجة لدراستها زعماء . وقادة الامم الشرقية حتى لا يلازمهم الفشل و تلاحقهم الاخطاء

مشاكل العالم المتمدين لأنها وليدة النظام الاقتصادى الذى ساد الدنيا بين حربين وكان من أثره تلك الأزمات التى عايدتها الانسانية فى العالم الرأسمالى بعد أن أصبح مكونا من مجموعات كبرى ذات صبغة عالمية يسودها التنافس.

أما فى القرن الماضى فقد كان النظام السائد فى عالم الاقتصاد هو نظام الباب المفتوح وهو يتلخص فى أمرين حرية البحار وحرية التجارة ثم التكافؤ فى المعاملة أى محاربة الاحتكار والمعاملة الممتازة وفتح الأبواب المغلقة وتكسير الأسوار الفولاذية التى تفرضها بعض البلاد وتتمسك بدرجة من الاستكفاء وبما لديها.

فالبوارج الحربية من مختلف الجنسيات الاوروبية التى قذفت بقنابلها موانى الصين واليابان فى القرن الماضى كانت فى عدوانها تقرع الأبواب المغلقة وتفرض سياسة الباب المفتوح — وفى مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوربية لبقاء الاحتلال البريطانى يلازمه دائما اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح وأخذ الضمانات على الأنجليز ألا يكون لهم مركز تجارى ممتاز أو أكثر رعاية فى الشئون الاقتصادية والمالية عن غيرهم ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية فى فرض الضرائب الجمركية وزيادتها مقيدة كما كانت فى السابق أيام السيادة العثمانية رغم سيطرة البريطانيين المباشرة وتدخلهم بغير حق بوجود جيش الاحتلال.[1]

---

(١) ستحطم هيئة الأمم المتحدة . بسياسة الباب المفتوح الاسوار الفولاذية والكتل الاستعمارية لفرنسة وهولنده والبرتغال: خدمه للاستعمار الانجلوسكسونى

وكانت سياسة الباب المفتوح إحدى دعامات القوة البريطانية الاستعمارية بل استغلتها بريطانيا استغلالا شائنا كلما أرادت التدخل فى الشئون الداخلية للامم أو إيجاد مبرر لسياستها معتمدة على أنها تعمل بوحى الرغبة الدولية العامة لاحترام مبادىء وقواعد وضعت لصالح المجموع الدولى الأوروبى .

١٤ ــ النظام الاستعمارى يحتم الخروج عن هذه القاعدة :

وحينما تقدمت الدول الاوربية فى طرق استغلال اراضيها بالمستعمرات وكثرت مواردها وزادت ثرواتها زيادة هائلة ، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها وسارت اشواطا نحو الوحدة الاقتصادية أو ما يشبه الاتحاد والتكتل بين الدولة الأوروبية ومايخضع لها سياسيا من الأقطار فيما وراء البحار .

وأدى هذا التطور إلى أن أخذت كل وحدة تطمع فى الاستكفاء بنفسها والاستقلال بمواردها .

وظهر هذا الاتجاه فى ناحيتين .

الأولى ـ أن الميزان التجارى الذى كان يعتمد على حرية التجارة خضع لمقدرة الدول الاستعمارية واستعدادها لتصريف الفائض من منتجاتها الصناعية فى المستعمرات التى تملكها .

الثانية ـ أن المواد الأولية التى كانت من المبدأ تحت متناول يد

بقية العالم عملا بمبدأ حرية التجارة أخذت تنحصر رويدا رويدا فى الأقاليم الأفريقية والإسيوية وغيرها بيد رجال وشركات الدولة الحاكمة فأصبحت بعد مرور سنوات قليلة محتكرة بيدها وبعيدة عن ومتناول الأسواق الحرة .

ولما كان كوكبنا الأرضى محدود المساحة ولم تبق منه بقعة خالية لم يرفرف عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر ولم يبق شعب من الشعوب إلا وأوقعه الحظ السيء تحت سيطرة أو حماية أو وصاية جمعت الدول الاستعمارية ثروات طائلة من احتكارها لهذه المواد وكان من الطبيعى أن تتلاقى القوى الاستعمارية على حدود مناطق لاتتعداها وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأنا عنها .

١٥ — التنافس فى دائرة التوازن بين القوى :

انتهى التوازن الأوروبى إلى توازن عالمى مسلح وأدى التوسع الاستعمارى إلى تنافس سلمى ظهرت بوادره ابتداء من القرن العشرين فمشكلة فاشودة المعروفة تمثل القمة فى التنافس الفرنسى البريطانى على اقتسام مناطق افريقية ثم تلاقت الكتلتان الاستعماريتان فى اتفاق سنه ١٩٠٤ المشئوم الذى اطلق أيدى فرنسا فى شئون سلطنة مراكش واعترف بمركز بريطانيا فى مصر واوجد الحلول للمشاكل الاستعمارية بين الكتلتين .

ويعتبر اتفاق ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا حلقة أكملت الاتفاق الأول إذ أنه جعل من إيران مناطق نفوذ وحدد الموقف إزاء أفغانستان وأقاليم أخرى فى آسيا وسد الباب على هذا التلاحق والتنافس أوقل ابعد الاحتكاك بين قوتين استعماريتين تخشيان الحرب والتصادم فيما بينهما .

ومع قيام مثل هذه المعاهدات والاتفاقات فإن التنافس بقى قائما بين هؤلاء المستعمرين وغيرهم ووصل إلى مداه قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وظهرت بوادر التسابق على اغتصاب المواقع ذات الاهمية الاستراتيجية واحتلالها وتحصينها خصوصا التى تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات الدولية استعدادا للحرب التى كانت لاشك آتية .

١٦ — أوروبا تخوض الحرب العالمية الاولى وهى فى عنفوان قوتها .

كانت أوروبا فى عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها وقد ورثت الأرض ومن عليها حينما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت حربا قاسية ضروسا خسرت فيها الدول الاوربية زهرة شبابها ولما وضعت الحرب أوزارها كانت أوربا كمركب شراعى كبير يخرج من وسط أعصار هائل .

وكان من مظاهر هذه الحرب أن شعوب المستعمرات شاركت

الامم الاوروبية القتال فيها بأموالها ورجالها والغريب أن نتيجة هذه المساعدة كانت وخيمة على هذه الشعوب إذ بمقدار عظيم الضحايا التى بذلت والخدمات التى ادتها المستعمرات ، زادت أطماع الدوله الحاكمة فى التمسك بها والتحكم فيها .

١٧ — متاعب أوربا :

وظهر جليا بعد الحرب أن أوربا تحطم فيها أكثر ما خلفته القرون الماضية من انظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية .

فلو قدر لمترنخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين ونماردة الرجعية الذين خُيّل إليهم أن الاقدار تسير طوع ارادتهم ، أن يروا بقايا الانقاض والخرائب التى تركتها الحرب وذلك الفراغ الهائل فى نفسية الشعوب ومثلها العليا وكيف كانت هذه الامم قاب قوسين أو أدنى من الدمار والانحلال إذن ليصعب عليهم أن يجدوا أثرا من الانظمة التى فرضوها على هذه الشعوب فى مستهل القرن الماضى .

لقد تحررت اوروبا من آثار القرن التاسع عشر وتقاليده ولكنها لم تهنأ بحالتها الجديدة إذ دخلت عصر اشعرت فيه لأول مرة بالفقر المادى والمعنوى وواجهت نوعا من المتاعب والمشاكل لم تألفه فى ماضيها فهى لم تستعد قوتها السالفة ولم تأت لها الأيام بالسلم والراحة والطمأنينة التى كانت تحلم بها طول أيام الحرب .

كانت العشرون عاما التى اعقبت الحرب العظمى كشريط سينمائى للحوادث استمر يعرض علينا مصائب الشعوب ومشاكل الحدود والاقليات والثورات المتتابعة (١).

وكان البلقان فى القرن الماضى يحمل هذا الطابع فأصبحت اوربا بلقانا ثانيا الآن ما أثارته الحرب وسنوات ما بعد الحرب من المشاكل والشكوك والريب والأطماع كانت اضعاف ما عرفته اوربا فى قرنين من الزمن وقد جاءت هذه كلها وجراح اوربا لم تلتئم بعد فكانت شديدة الوقع على الشعوب ومقدراتها.

كانت أوربا قبل الحرب ست دول عظمى هى بريطانيا وفرنسا وروسيا ثم المانيا والنمسا والمجر وايطاليا هى التى تسيطر على الحرب والسلم وتقيم سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية وأساليبها الملتوية وانتهت الحرب فاذا أكبر متاعب اوربا تسببها مجموعة من الشعوب الصغيرة التى أوجدتها معاهدات الصلح دون أن تستند على دعائم تاريخية ثابتة أو أسس راسخة فهذه الدول المرتجلة أمضت العشرين عاما بين الحربين تتأرجح بين التيارات المختلفة فهى لم تثبت على مبادىء واحدة ولم تنهج سياسة معينة وكما كانت فى الماضى ستكون فى المستقبل من اهم العوامل التى ستثير الحرب العالمية الثالثة.

فقد كان تنازع هذه الدول على مقاعد عصبة الأمم يضحك اوربا

(١) ان الفراغ الذى تركته امبراطورية هابسبرج فى وسط اوروبا : قد اعترف به أولئك السياسيون الذى نادوا بتحطيمها — واليوم يعترف الانجلو اميركان بخطأهم فى اضعاف المانيا وتحطيمها.

كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المكون من تشيكو سلوفاكيا ويوجو سلافيا ورومانيا لتهديد حكومة المجر المجردة من سلاحها يدل على شجاعة ولكن هذه الجرأة لم يجد لها العالم من أثر حينما انفض المجلس وتضاءل وانكمش امام قرار ضم النمسا لالمانيا الكبرى واحتلال تشيكو سلوفاكيا : لقد انتهى التحالف الصغير وسط ضحكات السخرية والتهكم وقتئذ .

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ولكنها لم تكن يوما ما مستقلة فى سياستها ولم تكن مخلصة للمواثيق والعهود التى قطعتها على نفسها بل ستبقى فى المستقبل كما كانت فى الماضى العوبة بيد الكتل الكبرى .

١٨ — التهيئة للتركيز الاقتصادى فى الكتل الكبرى :

فقدت أوربا مركزها الممتاز وسط الفوضى التى كانت سائدة فيها بانهيار القوة التى كانت تمتلكها شعوبها أمام العالم ، ولذلك اتجهت الدول العظمى الاستعمارية إلى دعم مستقبلها معتمدة على عوامل عالمية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية ، وكان التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية تسير بالدول الاستعمارية نحو التركيز الاقتصادى أو فى طريق خلق نوع جديد من الامبراطوريات الاقتصاديه أو الوحدات المكونة من مجموعة من الدول والأمم التى وإن كانت

غير مرتبطة سياسيا فهى متعاونة اقتصادياومادياً وهذه كانت بداية الكتل الكبرى التى ظهرت فى العالم ونراها اليوم فى عنفوان قوتها.

١٩ — خروجها من الأزمات ومواجهتها للمتناقضات :

ولم يكن هذا التوجيه فى حلم أحد من الناس بل هو النتيجة الطبيعيه للعوامل التى سببها التوسع الاستعمارى الجارف وهذا التطور الذى صحب العالم وبينما كانت هذه الأمم فى غمرات هذه الفترة تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها ظهرت المتناقضات فى أنظمها الاقتصادية (١).

فالأنظمة الرأسمالية وقواعد استثمار المواد الخام وكذلك شركات البترول العالمية لم يفكر أحد من رجالها فى الأزمات المتتالية التى بدأت سنة ١٩٣٠ وغمرت أمريكا وأوروبا وهددت بالإفلاس المؤسسات الإقتصادية والمالية الكبرى فلم تكن هذه الرجات أوروبية أو أمريكية أو محلية حتى يمكن تلافيها بل كانت عالمية تشبه السنوات العجاف التى تحدثت عنها الكتب السماوية.

كانت هذه الأزمات الواقعة بين حربين امتحاناقاسياً للأنظمة الرأسمالية وهيكلها الاقتصادى ولقوة المقاومة لدى الدول الكبرى ثم كانت أهم من ذلك إذ برهنت على قوة الرأسمالية واستعدادها للخروج منتصرة من وسط الأزمات وقابليتها لمواجهة المتناقضات

(١) لم تظهر المتناقضات فى النظام الاستعمارى لكل دوله بل فى المجموع الاقتصادى كله نتيجة لسياسة المنكتل الانفرادى لكل كتلة من المستعمرات

وهى ميزة لم تتمكن الشيوعية بعد من إثباتها أو البروز بها رغم خروجها منتصرة من الحرب الأخيرة .

وكانت هذه الأزمات دافعاً قوياً أقنع بريطانيا وأمريكا أن مستقبل العالم يتطلب تفاهما وتعاونا وتكاتفا بين حكومات الانجلوسكسون وبدت هذه الظاهرة واضحة لمن أنصت إلى خطاب الرئيس ويلسون سنة ١٩٣٦ وهذا التفاهم هو الذى أدى إلى دخول الولايات المتحدة فى الحرب وهو الذى جعلها تقف فى صف بريطانيا بعد انتهائها لواجهة مشاكل العالم الجديد . والذى سيحتم يوماً تأليف كتلة منهما ازاء السوفييت

٢٠ — نظرة شرقية للعالم بين حربين :

لم تحصل أمم العالم على شىء من حريتها بعد الحرب الأولى ، وبقيت كما كانت خاضعة لسلطان أوروبا ودولها[1] ومع هذا كان يبدو للناظر أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، ولم يحدث فى العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى ملايين من الأطنان من كافة الأصناف إلى ما وصلت إليه فى السنوات العشر بين سنة ١٩٢٠/١٩٢٩ ، وما يقال عن المواد الأولية يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها مما تخرجه الأرض وتصنعه يد الإنسان

ويقابل هذا الفيض العظيم حرمان غريب فرض على أكثر من

(١) استعملت مبادىء ولسون لتحرير شعوب المستعمرات وطبقت فى اوروبا فسببت قيام الحرب الثانية .

ثلثى الإنسانية الذين يعيشون فى مستوى من الفقر والفاقة لا يتناسبان مع المستوى اللائق بانسان ففى الوقت الذى كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنقل بانتظام على البواخر بين القارات وصل استغلال الشعوب الاسيوية والأفريقية وبعض الامريكية الى منتهاه بل الى درجة لم تعرفها الارض قبل ذلك وفى الوقت الذى كانت الدول الحاكمة تصرف الملايين على بناء الاساطيل وعلى ميزانيات الجيوش كانت هذه الاجزاء المغلوبة على أمرها تعانى من ويلات المجاعات والأوبئة وتخسر من ابنائها مالم تكلفه الحروب من خسارة فى الارواح وكان مايصرف على انشاء بارجة واحدة يكفى لتعليم ابناء أمة ترزح تحت براثن الاستعمار وما يصرف على فرقة دبابات مدرعة يكفى لا يواء أهل مدينة واسكانهم فى منازل تشبه البيوت التى يسكنها الناس فى أوربا وامريكا أن التسليح الجارف استهلك أحسن ما اخرجته عقول البشر وافقر الانسانية وجعل بقاعا من الارض تستمر خرابا الى اليوم .

ان أكبر متناقضات المدنية الحديثة مدنية الرجل الابيض سواء اكانت رأسمالية أو شيوعية ديموقراطية ام نازية هى أن غالبية سكان الأرض لا يصيبهم منها سوى النزر اليسير ان لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذى تخرجه اراضى بلادهم فسواء كان الاستعمار اوربيا

أو امريكيا أو سوفييتيا فهو واحد لا يتغير ويصدق فى سكان المستعمرات والبلاد المحكومة قول الشاعر العربى .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولنضرب لهذا مثلا عن سكان الأرض وتعدادهم وهو لا يقل عن ألفى مليون نسمة ثم خذ المستوى فى بلد من بلدان المستعمرات فى آسيا وافريقية ، أو فى بعض بقاع أمريكا الجنوبية نجد أن أكثر من نصف السكان من رجال ونساء وأطفال شبه عراة وهذا مما يجعل أكثر[1] من نصف الإنسانية فى حاجة إلى الكساء بينما كانت آلاف الأطنان من القطن الخام يحرق فى المزارع الأمريكية من أجل نصف ريال يدخل فى جيوب المنتجين .

ولا تزال مشكلة نقص الغذاء تشغل العالم وهى مشكلة مخيفة إذا درسناها على ضوء الدروس التى تلقيها مصر فى أدوار الغلاء والمجاعات التى مرت بها فى السابق وهبط بسببها عدد السكان وخربت مناطق كانت عامرة فى شمال الدلتا ، وفى مديرية البحيرة ، وعلى الطريق بين الأسكندرية وبرقة [2]

ولا تزال ذكرى مجاعات الصين والهند تعاودنا ، ولا يمر عام رغم ارتباط العالم وسهولة مواصلاته دون أن تسمع بإصابة المناطق الروسية بقحط شديد ، حتى فى سنوات الخصب والرواج تجد أن

---

(١) يقدر الكاتب الأمريكى إستورداد عدد الشعوب الملونة باكثر من نصف سكان الارض (٢) راجع كتاب المقريزى (اغاثة الامه بكشف الغمة)

أهل المستعمرات لهم نصيبهم من قلة الغذاء ونقصه ، بل ذكر كثير من رجال الاستعمار أن هناك ملايين من بنى آدم لا يصيبهم غير وجبة واحدة وضئيلة فى اليوم الواحد ، وكثيرا ماتكون مكونة من المرق وقليل من الأرز بينما هناك الأطنان من المواد الغذائية كانت تستعمل للحريق فى القاطرات والبواخر لأن بلادها تريدأن لاتخسر ريالا من أثمانها

وإذا كان الاستعمار من وسائل تعذيب الشعوب لخدمة دول معلومة ، أو طبقة حاكمة فيها فإن الاتحاد السوفيتى ضرب مثلا فى تعذيب ١٨٥ مليونا من الناس لتطبيق نظام خاص فإن المبالغ التى صرفها الاتحاد على المزارع التعاونية والنموذجية وإدخال الصناعات قد نقلت فعلا الاقتصاد الروسى إلى الأمام ، ولكنها اشتريت بثمن فاحش وبحرمان الشعوب من حق الحياة الحرة ، وهل يمكن معرفة عدد السعداء حقيقة بين حدود حكومات الاتحاد السوفيتى .[1]

مهما كانت الظروف المحيطة بالعالم اليوم وهى لا شك غير مشجعة فقد كانت مثل هذه الظروف سائدة قبل الحرب ، ولكن النيات كانت راغبة فى الخروج من هذه الحالة أما اليوم فلا توجد هذه النية . بل كل الدلائل تقنع باقتراب العاصفة ففى تلك الأيام قامت الدعوة لعقـــد مؤتمر اقتصادى عالمى فى مدينة

---

(١) خصوصا بين شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والقرم الاسلامية

لندرة ولم يأت الاجتماع إلا بعد أن توالت النكبات وتعاقبت الأزمات قبل سنة ١٩٢٣. وكان الغرض الخروج من حالة مبهمة .

وتعود بي الذاكرة لاقتناص بعض ماوعته نفسي ، فإني رغم ابتعادي عن التفاصيل اذكر مبدأين نودي بهما وقتئذ .

الأول ـ أن بقاء الاتحاد السوفيتي يحكم سبع الأرض المعمورة تحت انظمة تجعل منه بقعة بداخل سور فولاذي ، ويمنع أهله عن الاتصال والأخذ والعطاء مع الأمم الأخرى [1] قد أخل بالتوازن الاقتصادي العالمي ، وان الأمم لن يتحقق لها الخلاص من الأزمات إلا إذا عاشت الدنيا تحت نظام متجانس . وقال الآخرون إن علة المدنية الحالية هو كثرة الانتاج ، وإن علاج الأزمات هو رفع مستوى الجماعات البشرية التي تعيش في المستعمرات ووضعها في مستوى يسمح لها أن تبيع وتشتري وتحيا حياة الانسان وهذا هو المبدأ الثاني .

أما النظرة الشرقية بعد هذا فترى أن الحياة لا تحتمل كل هذه المفارقات وأن مايصرف على الأساطيل والجيوش هو مثل مايصرفه السوفييت على جيوشهم ومزارعهم ومصانعهم تدفع ثمنه البشرية من حرمانها فلا يرتفع مستوى الجماعات في المستعمرات إلا اذا وطنت الأمم الأوربية نفسها على السلام لأن الأسلحة التي تجمعها هو لاندة هي من دماء اندونيسيا والغريب أنها توجه في النهاية إلى صدور الأمم المظلومة

---

(١) لاتزال هذه الفكرة قائمة الى اليوم وهي المحرك الاساسي للحرب القادمة

والصناعات التى يقيمها السوفييت ويبذلون الجهود من أجلها قد يسهل على الآخرين إقامتها وإنشاؤها فى روسيا بتكاليف أقل وبدون أن تتحمل الشعوب السوفيتية هذا الاجهاد الهائل والحرمان الدائم. إنك تحكم على فرد بالأشغال الشاقة مدة طويلة لتعده بأن يملك يوما عمارة أيمو بيليا مع أن فتح هذا السور الفولاذى من حولهم يعيد الحياة إليهم، ويجعل من الدنيا موطنا واحدا للبشر كافة وهذه رسالة الرأسمالية فى نظرهم.

كان مؤتمر لندرة الإقتصادى كسوق قام ثم انفض ولم يربح فيه أحد فلم تحل مشكلة المواد الأولية لأنها أساس الاستعمار وبقيت هذه المواد وأصحابها : أى سكان البلاد المظلومة على الحالة التى وجدهم المؤتمر عليها، ولم تلتق نظريات الروس مع عالم رأس المال، ولم تتفق حتى الأمم الرأسمالية عند فكرة واحدة ولو أمكن الإنفاق على المواد الأولية ورضيت الدول الاستعمارية أن تشترك معها بقية الأمم فى شىء من خيرات الأرض لما قامت الحرب العالمية الثانية وهكذا تفرعت اللجان فى المؤتمر وتوزعت الأعمال ووضعت التقارير وخسر العالم آخر فرصة لإنقاذ السلم إذ بعد فشل مؤتمر لندرة سنة ١٩٣٣ تسابقت الدول إلى التسليح واستعدت للحرب العالمية التى بدأت منذ سنة ١٩٢٣ ولم تفته بعد.

قامت هذه الحرب والعالم مكون من عدة كتل تختلف قوة وهى:

١ — الولايات المتحدة وممتلكاتها ودول الأمريكيتين.

٢ — بريطانيا وأمبراطور يتها و أصدقاؤها ومعها هو لاندة ومستعمراتها والبرتغال ومستعمراتها.

٣ — وروسيا فى أوروبا وآسيا .

٤ — فرنسا ومستعمراتها وفيها بلجيكا وتوابعها .

٥ — اليابان والشرق الأقصى .

٦ — ثم إيطاليا تحاول أن تبنى لها أمبراطورية .

أما بقية العالم فاستمر حائراً ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن الماضى أحيانا وكانت المانيا تسير بخطوات جبارة وهى التى تملك أكبر جهاز صناعى فى أوربا ولا ينقصها سوى المستعمرات لتكوين أكبر الكتل العالمية وهذه سرقت منها فى فرساى ولما وفقدت الأمل فى أخذ المواد الأولية بالسلم فى مؤتمر لندرة استعدت أن تأخذها بالسيف وكانت اسبانيا فى موقف أمة شرقية تحاول أن تقلد الغرب وتنام ملء جفنيها لتحلم بالارماداتمخر البحار وفرديناند[1] وإيزابلا يطاردان الموريسكو[2] الملعون على سفوح جبال أطلس وكانت إيطاليا لاتنفك تردد أغنية الأمبراطورية الرومانية فى الصباح والمساء حتى ضج الناس من روما ومجدها وشرائعها وكان للتحالف الصغير مشكلة تقلق مضاجع كل من رومانيا وتشكو سلوفاكيا ويوجوسلافيا هى قبعة الأمير الطفل الوارث لعرش هابسبرج وكانت بولونيا

(١) اسم ملك اسبانيا وملكتها اللذين طرد العرب فى عهدهما .

(٢) الاسم الذى يطلق على المسلمين .

فرنسية عاما حيادية عاما وانتهت إلى أن جعلها الكولونيل بيك وزير خارجيتها حليفة لألمانيا ثم دهمته الطائرات الألمانية حتى خرج شارداً من بلاده .

هذه حالة أوروبا عند قيام الحرب بعد إن فشلت إجتماعات لندرة لتأليف عالم جديد بالتفاهم والإرادة الحرة ثم ظهر أن الفريق الغالب هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعامات الاقتصادية أكثر من غيره وأن الأسلحة تذوب وتفنى والمبادىء المتطرفة والأحزاب تبلى بجانب هذه السيطرة الصناعية القوية ولذلك أخذت خطوات التكتل تسير بسرعة فائقة فهولانده والبرتغال اتجهتا نحو الكتلة البريطانية وجمهوريات أمريكا الجنوبية التأمت فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانقسم العالم الرأسمالى شطرين : الذين ملكوا الأرض واستكفوا[1] والذين يرغبون فى المستعمرات وقادت ألمانيا الفريق الثانى وانضمت إليها إيطاليا واليابان وحالفتها إسبانيا وانتهت الحرب فإذا الرأسمالية ممثلة فى كتلتين أمريكا وبريطانيا وذهبت اليابان وإيطاليا وضعفت كتلة فرنسا أمام صيحات موسولينى الذى مات بعد أمضى السنوات يقول :

« المستكفون لا يشعرون بحاجة غير المستكفين » وهذه مع أمبراطوريتها فى الجزء الشمالى من افريقيا موضوع هذا الكتاب .

---

(١) راجع : خطب ومؤلفات موسولينى

Scriti e Discorsi, Benito Mussolini .